

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث عمر -رضي الله عنه- حديث جبريل ٥

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:
فلا زلنا نتحدث عن حديث جبريل -صلى الله عليه وسلم-، لما سأله النبي -صلى الله عليه وسلم- عن
السؤالات المشهورة عن الإسلام، والإيمان، والإحسان.

ثم سأله عن الساعة، فلما سأله النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة، قال: **((ما المسئول عنها بأعلم من السائل))**، فسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أماراتها.

قال: فأخبرني عن أماراتها، جمع أمارة وهي العلامة، بمعنى: ما هي العلامات التي يعرف برؤيتها، أو
بوقوعها أن الساعة قريبة الوقوع؟.

قال: **((أن تلد الأمة ربتها...))**، هذه العلامات التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- هي من العلامات
الصغرى، وال الساعة كما هو معلوم لها علامات صغرى، ولها علامات كبرى، والعلامات الصغرى أكثرها قد
تحقق ووقع، ومن ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر جملة من الأحاديث التي يذكر فيها أشراط
الساعة الصغرى، كالنار التي تخرج في أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصري^(١).

ووقع ذلك في القرن السابع الهجري، بعد الستمائة من الهجرة، وقعت نار في حرّة المدينة من الناحية
الجنوبية الشرقية، من ناحية المطار إلى ناحية طريق القصيم الآن، وهو ما يعرف بحرّة النار.

خرجت تلك النار، وفزع أهل المدينة فزعاً شديداً، وتابوا إلى الله -عز وجل- وامتلأ بهم المسجد النبوى،
وكتب أخبارها في ذلك الحين، ورئي ضوءها يلوح في أعناق الإبل هناك ببصري، وهي نار بركانية ضخمة
وصفتها الواصفون بما توصف به البراكين اليوم، ومن نظر إلى ذلك المحل عرف هذا، فأخرجت الأرض
حاماً نارية، صخوراً ذاتية ملتهبة، تسيل كأنها الطوفان، حتى مالت إلى ناحية المدينة، فخافوا أن تصل إلى
مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأن تحرق المدينة بكمالها، ثم بعد ذلك مالت ناحية عنه إلى أن
توقفت.

وكذلك ذكر من علاماتها أن يوشد الأمر إلى غير أهله^(٢)، وكذلك أيضاً ذكر أموراً كثيرة منها أنه -صلى الله
عليه وسلم- قال: **((بعثت أنا والساعة كهاتين))**^(٣) وجمع بين المسبيحة والوسطى كهاتين.

^١ - عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **((لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصري))** أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب خروج النار (٦٧٠١)، رقم: (٢٦٠٥/٦)، ومسلم،
كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز (٤/٢٢٢٧)، رقم: (٢٩٠٢).

^٢ - أخرجه البخاري، كتاب الرفق، باب رفع الأمانة (٥/٢٣٨٢)، رقم: (٦١٣١).

^٣ - أخرجه البخاري، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- (بعثت أنا والساعة كهاتين) (٥/٢٣٨٥)، رقم: (٦١٣٨)، ومسلم،
كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (٤/٢٢٦٨)، رقم: (٢٩٥١).

قال: ((أن تلد الأمة ربتها)) الأمة بمعنى المسترقّة التي تباع وتشترى، فأن تلد ربتها هذا يحتمل أن يكون المراد به كثرة ما يحصل من الإماماء، بسبب الفتوحات الإسلامية؛ لأن أصل الرق الكفر كما هو معروف. فتحصل فتوحات كثيرة حتى إن الإماماء لكرتهن لربما وطأ الرجل المرأة بملك اليمين، ثم بعد ذلك تتداول في الأيدي لكتلة الإماماء، فلا يتمسّك بها صاحبها، يشتريها هذا، ويبيعها الآخر، حتى يشتريها ابنها الذي من ذلك السيد الذي قد وطأها وباعها أو وهبها، تكون في ملكه، يشتريها وهو لا يعلم، وهي أمه؛ لأن الرجل إذا تسرّى بالأمة، ثم جاءت بولد فإنه يكون حراً، وإذا تزوج الأمة بعقد نكاح فإن الولد يكون عبداً يملكه سيد هذه الأمة، فيمكن أن يكون هذا هو المراد.

ويمكن أن يكون المراد بذلك: أن هذا يعني تغيير الأحوال من جهة أن الأمة إذا أنجبت ولداً فإن عامة الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- يرون أنه لا يجوز بيعها، وإنما تعنق بوفاة سيدها، فإذا ماتت صارت حرّة، وهي التي يسمونها أم الولد، وهذا الذي عليه عامة الصحابة فمن بعدهم، وخالف فيه علي -رضي الله تعالى عنه- بعد ذلك، وكان موافقاً لهم، ثم خالف فيه في أيام خلافته، ورد عليه الصحابة، وقالوا: إن رأيك في حال الاجتماع أحّب إلينا من رأيك في حال الافتراق.

فيحتمل أن المراد أن هذه الأمة التي قرر عامة الصحابة فمن بعدهم أنه لا يجوز بيعها؛ لأنها أنجبت من سيدها ولدًا، أن الأمور تتغيّر والناس يفرون، ويتساهلون، ولا يلتقطون إلى أحكام الشرع، ثم تباع أمهات الأولاد، ثم بعد ذلك قد يشتريها هذا الابن أو البنت وهو لا يعلم.

ويحتمل أن تكون أم الولد هذه لا تعنق بعد موت سيدها، لا يطبقون الأحكام الشرعية فتصير ملكاً لوارثه -للولد أو البنت- فتكون الأم مسترقّة لولدها، وهذا لا يجوز.

ويحتمل أن يكون المراد بذلك العلو والتسلط، أن تلد الأمة ربتها، بحيث يكثر العقوق، وتكون الأم بمنزلة المسترقّة عند البنت، وسواء كان هذا، أو هذا، أو هذا فإن الفعل يدل على تغيير الأحوال.

ومن فهم منه أن ذلك يكون بسبب كثرة الإماماء فيحصل هذا الاختلاط، وأن ذلك لم يقع بعد قالوا: هذا يدل على أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيمة، وأن الاسترفاقة سيرجع من جديد.

أما الجهاد فلا شك أنه ماضٍ إلى يوم القيمة، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا ضمان من الشارع، وأما ما يتعلق بكون هذا الحديث يدل على أن الاسترفاقة سيرجع فهذا علمه عند الله -عز وجل- لأن هذا الحديث لا يدل بالضرورة على ذلك، وهذا الأمر قد يكون وقع في السابق، كانت الإماماء بكثرة إلى وقت قريب.

بل إن عبد الملك بن مروان جيء إليه وهو يخطب الجمعة على المنبر بنحو ثلاثة ملوك الفرنج، وهم من ملوك أوروبا، عليهم تيجان الذهب، مقيدين في الأصفاد، فهذا هو العز، وهذا هو الملك الذي يفتخر بمنته، ليس بالفوز بمبارزة.

قال: ((وأن نرى الحفاة، العراة، العالة، رعاة الشاء يتظاولون في البنيان)) حفاة لفقرهم، عراة لقلة ذات اليد، رعاة الشاء وذلك أن رعاة الشاء هم أهل الضعف والمسكنة، بخلاف أهل الإبل، فهي من أعظم الثروات عند العرب، ولذلك يقال: حمر النعم، وأيضاً هذه الإبل يكون أهلها من أهل الكبر والتعالي والرفعة.

أما رعاء الشاء فهم يكونون أهل مسكنة وأهل ضعف، فهم أناس ضعفاء، يتحولون إلى شيء آخر في آخر الزمان، يتطاولون في البنيان، بمعنى أن كل واحد منهم ينافس الآخر، أيهم أكثر رفعة في البنيان، وهذا الأمر قد وقع، وهو شيء مشاهد، الحفاة العرابة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.

وهذه الأشياء التي ذكرت في هذا الحديث، أو التي ذكرت في غيره لا يفهم منها بالضرورة أنها تعني الذم، فإذا قلنا: إن هذا يدل على كثرة الإمام، أو يتطاولون في البنيان لا يعني أن هذا الفعل الذي حصل أنه شيء محرم على بعض التفسيرات.

ومن أشرطة الساعة بعث النبي ﷺ عليه وسلم، ولا شك أن هذا شمس -أو أعظم من الشمس- أشرت على الدنيا.

ومن علامات الساعة: خسف في المشرق، وخسف في المغرب، وخسف بجزيرة العرب، والنار التي تخرج في أرض الحجاز، والرجل الذي يكون من قحطان يسوق الناس بعصاه، على أحد التفسيرات أنه يستقيم له الأمر وينضبط له الحال، ويثبت له الملك، وكذلك خروج المهدى، وهذا كله لا يعني الذم.

وهناك علامات كبيرة إذا وقعت فهي كالعقد الذي انفرط، من خروج الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج المسيح الدجال، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى محشرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي ذكرها النبي ﷺ عليه وسلم.

فهذه إذا وقعت تتبعها، فالشمس إذا خرجت من مغربها خرجت الدابة ضحى، وهذه الدابة تسمى كل إنسان، وتضع عليه سمة يعرف بها، والله -عز وجل- يقول: **{يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَّ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ}** [الأنعام: ١٥٨]، جاء في بعض التفسيرات أن المقصود بقوله: **{بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}** الدابة، وبعضهم قال: خروج الشمس من مغربها، ولا منافاة؛ لأن الشمس كما قلت إذا خرجت من مغربها خرجت الدابة على الناس ضحى، ثم انتظر ماذا يحصل بعد ذلك بقية يومك، فسائل الله العافية.

يقول عمر -رضي الله عنه:-: فلبيت ملياً، أي: انتظرت قليلاً، ثم قال: يا عمر، ((أتدرى من السائل؟))، قلت: الله ورسوله أعلم.

هذه العبارة يمكن أن يقولها الإنسان في الأشياء التي تصلح لذلك، فإذا سئل الإنسان عن شيء مثل عمر هنا يقول: الله ورسوله أعلم؛ لأن النبي ﷺ عليه وسلم يعلم عن هذا.

لكن لو قيل لك: أين فلان؟ فلا تقل: الله ورسوله أعلم، لأن النبي ﷺ عليه وسلم لا يعلم بذلك، النبي ﷺ عليه وسلم لا يعلم الغيب، فهذا من الغيب النسبي.

لو قيل: ماذا سيقع لك غداً؟ لا تقل: الله ورسوله أعلم، وإنما تقول: الله أعلم، لكن أقول: ما حكم المسألة الفلاحية؟ ما حكم العمل المعين؟ تقول: الله ورسوله أعلم، لأن النبي ﷺ عليه وسلم يعلم الأحكام الشرعية.

قال: ((إِنَّهُ جَبَرِيلٌ أَنَا كُمْ يَعْلَمُكُمْ دِينَكُمْ))، فالدين هو هذه المراتب الثلاث، الإسلام، والإيمان، والإحسان، يعلمهم بهذه الطريقة، طريقة السؤال والجواب.

قال: ومعنى تلد الأمة ربها، أي سيدتها، ومعناه: أن تكثر السراري حتى تلد الأمة السُّرِّيَّة بنتاً لسیدها، وبنت السيد في معنى السيد، وقد قيل غير ذلك.

لكن هذا الأمر -هذا التفسير- فيه إشكال؛ لأنه موجود من زمن النبي ﷺ. قال: والعالة الفقراء، قوله: ملياً أي زماناً.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.